

ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

(معتمد ومصنف دوليًا)

الرقم الدولي المعياري للمؤتمر



المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية



التداخلات البينية من النظرية إلى التطبيق عند الدكتور خيرى دومة فى كتابه "عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار"

د. حمزة قناوى

ثمة جهدان أساسيان قام بهما الدكتور خيرى دومة لا يمكن النظر إليهما بمعزل عن بعضهما البعض، كما أنهما – من منظوري – يكتسبان تكاملاً معاً بحيث يُكوّنان حلقة مهمة فى إنتاجية المعنى النقدي فى الثقافة العربية، الجهد الأول ترجمته لكتاب "الإمبراطورية ترد بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق" لـ (بيل أشكروفت، وغاريث غريفيت، وهيلين تيفن)⁽¹⁾، ولا يقتصر الأمر على الترجمة وأسلوبها الواضح الفريد المميز فحسب، بل أيضاً مُقدمته لهذا الكتاب، وسأعود إليها، وكتابه: "عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال، ونظرية ما بعد الاستعمار"⁽²⁾، ويكتسب هذا الكتاب أهميته فى كونه يحوي تلخيصاً لنظرية ما بعد الاستعمار وتقديمها من ناحية، وتطبيقاً نقدياً مصاحباً لهذه النظرية من ناحية أخرى، وهى ظاهرة كنا قد افتقدناها منذ فترة كبيرة، يذكرنا ذلك بكتابات محمد غنيمي هلال، ومحمد مندور، وعصور مضت، كان فيها مقدم النظرية النقدية يقوم بتقديم تطبيق توضيحي مصاحب، وفى حالة نظرية بحجم نظرية ما بعد الاستعمار فإن الأمر بقدر من الصعوبة التى كان دائماً ما يشكو منها المعاصرون بأنهم غير قادرين على ملاحقة هذه النظريات، وإن لاحقوها فإنهم غير قادرين على تطبيقها وعلى فهم ما تقدمه فى إطار من الوضوح.

¹ - بيل أشكروفت، وغاريث غريفيت، وهيلين تيفن: الإمبراطورية ترد بالكتابة: آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، ترجمة: د.خيرى دومة، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2005م.
² - د.خيرى دومة: عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار، دار أزمنة، عمان – الأردن، 2010م.

سننظر للسياقين اللذين قُدمَ فيهما الكتابان معاً، والفارق الزمني بين الكتابين الذي يصل إلى 5 سنوات، ذلك أن سياقات مطلع الألفية إلى العقد الأول منها، كانت سياقات الحداثة منذ نحو عقدين مضت تتبلور على شكل خاص في مطلع القرن الواحد والعشرين، وربما من دون أن يدرك العالم العربي الأفق العالمي، كانت هناك حقبة من العولمة المعتمدة على أحادية القطب، متمثلةً في محاولة الولايات المتحدة الأميركية تعزيز هيمنتها على العالم، في الوقت ذاته هناك جهود تبذلها كل من الصين وروسيا من أجل عرقلة العولمة الأميركية أحادية القطب وقيام عالم متعدد الأقطاب⁽³⁾.

إن التوقيت الذي قُدمَ فيه كتابا خيري دومة، بالتزامن مع طرح قضايا الحداثة وما بعدها في الثقافة العربية، هو التوقيت ذاته الذي كانت تجرى فيه مراجعات غربية بشأن ما إذا كان لا تزال هناك إمكانية لاستمرار الإمبريالية، التي هي تطوير للاستعمار من عدمه، ذلك أن التسلط في مرحلة الإمبريالية والقهر والإخضاع هو أمر شائع كإحدى ممارسات النظام العالمي الذي تشكّل عقب استقلال الدول التي كانت مستعمرة، بل إن الإخضاع في ظل الإمبريالية هو أمر أكثر حضوراً وعموماً من قبل الدول القوية على الدول المهيمين عليها⁽⁴⁾، ففي الوقت الذي نشعر فيه بالهيمنة الكبرى من الدول العظمى، ونبحث في آليات المقاومة والرد بالكتابة، فإنه على النقيض، من قلب الإمبراطورية الجديدة – إن جاز القول – هناك تساؤل حول مدى إمكانية استمرار الإمبراطورية، يقول ألكسندر دوغين: "تذيب العولمة الدول وتصهرها؛ "البداوة الجديدة والكوزموبوليتية الكوكبية تقودان إلى خلخلة الأمة؛ تصبح كل من العلمانية والديانات التقليدية والعبادات غريبة الأطوار والشاذة متساوية من حيث الدور والمكانة، فاتحة الطريق أمام البنى شبه الدينية التعسفية والفردية (العصر الجديد)؛ فضلاً عن تزويد "الأنا" بسمات تعسفية

³ - ألكسندر دوغين: الجغرافيا السياسية لما بعد الحداثة: عصر الإمبراطوريات الجديدة. الخطوط العامة للجغرافيا السياسية في القرن الحادي والعشرين، ترجمة: إبراهيم إستنبولي، مراجعة: إسكندر الكفوري، دار المستقبل العربي، قطر، 2022م، ص 20.

⁴ - حورية توفيق مجاهد: الاستعمار كظاهرة عالمية حول الاستعمار والإمبريالية والتبعية ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، 1990م، ص 23.

افتراضية يتم إسقاطها على الاستنساخ الافتراضي للفضاء السبيراني، ما يخلق فردانيةً مُفرطة.⁽⁵⁾

نلاحظ دائماً ثمة فارق في المتابعة بين الفكر العربي والفكر الغربي، فإذا ما كنا نتوجه في مطلع الألفية الجديدة، ومازلنا حتى الآن نقوم بمحاولة الاستفادة من الدراسات ما بعد الكولونيالية التي كانت تبلغ أوجها في ثمانينيات القرن الماضي، بوجود فارق يصل إلى نحو نصف قرن بالنسبة لوقتنا الراهن، فإن الإمبراطورية الغربية متمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية يتوجه باحثوها وكتّابها إلى التشكيك حالياً بمدى إمكانية استمرار مشروع الإمبراطورية المعاصر، وما إذا كانت الهيمنة عبر الإمبريالية المعاصرة يمكن لها أن تستمر بالقدرة ذاتها على التحكم والتدخل في مجريات أمور الدول التي كانت ذات يوم مستعمرة، أم أن العولمة، التي أدت إلى نوبان الحدود الدولية، والتي كان يقصد منها أن تكون وسيلة للسيطرة على الدول التي كانت واقعة من قبل تحت الاستعمار، إذا بهذه العولمة تحمل في داخلها طيات تقلل من قدرات الدول التي قامت بتصنيعها وتصديرها للدول الأخرى؟ سؤال مهم ونحن نبحث في تشكل المعاني القومية والوطنية في العالم المعاصر في وقتنا الراهن.

الجهد الذي قام به د. خيرى دومة في ترجمة كتاب "الإمبراطورية ترد بالكتابة" هو جهد مميز، ليس من باب اختيار كتاب مهم في بابيه في مجال الدراسات الكولونيالية وما بعدها، في وقت فيه تبدو المصادر الأصلية للدراسات ما بعد الكولونيالية شحيحةً مقارنةً بنظرياتٍ أخرى كالبنوية والتفكيكية والهيرمنيوطيقا، ولا نعلم سبباً واضحاً لقلّة محاولة ترجمة المصادر الأصلية لما بعد الكولونيالية، ولا انصراف المترجمين العرب عنها، رغم استخدام النظرية، ووجود عشرات الأبحاث باستخدامها، ووجود العديد من الأطروحات الجامعية تتمثل النظرية وتعمل من خلالها في وقتنا الراهن، على أي حال، وبما نحن في صدد مؤتمر يبحث عن المعنى وكيفية إنتاجه، وبما أنني أؤكد تعددية المعنى، الذي قد يكون ممارسةً تطبيقيةً لنظرية، أو فهماً وتطبيقاً لأفكار ورؤي، أو

⁵ - ألكسندر دوغين: الجغرافيا السياسية لما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 47.

استنتاجاتٍ ومقارباتٍ فلسفية، فإننا هنا نبحث أيضاً في حالة توصيل المعنى باستخدام الترجمة في حد ذاتها.

يقول جميل حمداوي: " .. الترجمة عملية وساطة بين النص والمنتلي. والهدف منها هو تقريب المعاني وتبسيطها لقارئ ينتمي إلى لغة ومنظومة ثقافية أخرى. ومن ثم، تحمل هذه الترجمة في ثناياها مقصدية المترجم الظاهرة أو المضمرة، وتحوي تأويلاته القيمة ومعتقداته الإيديولوجية، سيما إذا كنا أمام ترجمة أدبية أو إبداعية. ومن المستحيل - في اعتقادنا- أن تكون هناك ترجمة صادقة وأمانة ووفية بشكل مطلق، بل تبقى الترجمة المعهودة تقريبية ونسبية ليس إلا. أي: إن الهدف المهم من فعل الترجمة هو التقارب بين المعاني والأفكار عبر منظومتين لغويتين مختلفتين أو أكثر. ومن هنا، فلا بد للمترجم من الإلمام بالعلامات اللغوية والثقافية والمرجعية للغتين معاً. ويعني كل هذا أن الترجمة ليست نقلاً للرسائل والمعاني فقط، بل هي نقل للقيم السلوكية والثقافية والحضارية. والترجمة ليست نقلاً فقط أو محاكاةً أو اقتباساً، بل هي إبداع قبل كل شيء" (6)

ونجد في ترجمة خيرى دومة عوامل مميزة، أهمها البعد عن التعقيدات، فقد يتوقع القارئ وهو يطالع كتاباً من أعقد النظريات المعاصرة، وأكثرها تداخلاً، أن يجد تعقيداً في الترجمة، على غرار ترجمات سابقة عانى كثير من القراء العرب عدم قدرتهم على فهمها، وأعطى المترجم العربي لنفسه فيها الصلاحية لنحت مفردات لغوية خارج سياقات اشتقاق النحت العربي، حتى أنني أرى أن مراجعة آلية الترجمة لهذا الكتاب، ومقدار ما فيه من يسر وسلاسة أسلوب تحتاج إلى دراسة بمفردها عن كيفية توصيل المعاني من خلال الترجمات. وهناك ملمح واضح هنا، هو أن الاستيعاب الواعي من قبل المترجم، هو ما ساعده على أن يقدم هذه الحالة الخاصة من حالات الترجمة المتميزة، التي من شدة سلاستها لا نلتفت لما فيها من جهد كبير من أجل توصيل المعنى إلى القارئ.

⁶ - جميل حمداوي: سيميوطيقا الترجمة: النص الهدف عند أحمد بوحسن نموذجاً، بوابة:

ديوان العرب، شوهده في 20/5/2023م، رابط:

<https://www.diwanalarab.com/article37165>

وإذا كانت ترجمته تمتاز بقدر من الإبداعية التي تتجاوز زخم الترجمات السابقة لموضوعات متعددة أثارت جدلاً كبيراً، فإن من العناصر المميزة في هذه الترجمة مقدمته لها، فقد انتبه في هذه المقدمة إلى مسألة جوهرية شديدة الأهمية، تلك المسألة هي انتباهه إلى إسهامات بعض النقاد من جنسيات مختلفة في الأصل تعود إلى البلاد التي كانت ذات يوم مستعمرة، لكنهم حالياً اكتسبوا جنسية البلاد التي يقيمون فيها، والتي هي بلاد الإمبراطورية التي ترد عليها هذه الكتابات وهذه الأصوات التي كانت مقموعة من قبل، بمعنى آخر أن هذا الزخم النقدي الذي يزعم أنه يواجه الهيمنة الإمبريالية ينطلق في الحقيقة من داخل حوض الدول الإمبريالية، ويلقى مباركتها، أو كما يلخص دومة بنفسه فيقول: "معظم كُتّاب ما بعد الاستعمار، ومعظم دارسي هذا الأدب ومنظريه يعيشون في الغرب ويكتبون عادة إلى غير مواطنيهم، ويشعرون أنهم مواطنون عالميون، ويستفيدون غالباً من هذه الوضعية، وضعية المهاجر المهمش المنفي صاحب القلم والصوت. إنهم يمثلون المستعمر ولا يمثلونه. يحملون ((جينه الوراثة)) ويكتبون باسمه، لكنهم لا يعيشون الآن معه. يعملون على تفكيك خطاب المستعمر، لكنهم يتجهون بخطابهم إليه هو: الحر المثقف. إنهم باختصار يُعبّرون عن وضعية ممزقة مؤلمة، هي ذاتها النتاج الحقيقي لفترة الاستعمار وفلسفته وتمزقاته." (7)

يمتلك خيرى دومة شجاعة نقدية أنه يقف أمام نظرية عالمية لكي يوجه لروادها سهام النقد المباشر، اختفت هنا في تطور المسيرة النقدية العربية زخم الأتباع ومحاولة التطبيق مجرد التطبيق، محاولة الالتزام التقليدي بقواعد الرومانسية أو الواقعية أو الكلاسيكية، أو حتى اختراع اقتباس الأدب المهموس كما حاول محمد مندور (8)، الوضع هنا مختلف، فهل نعد ذلك تطوراً في فهم معنى النظريات النقدية الغربية، وانتقالاً من مرحلة التقليد إلى مرحلة المحاوراة مع النقد الغربي؟

إذاً أدعو هنا للنظر للأمر من منظور المعنى، واعتبار أن كل نظرية نقدية في النهاية لها معناها الخاص، بمعنى أن مسمى مثل الرومانسية مثلاً، رغم صعوبة تعريفه

7 - د.خيرى دومة: مقدمة ترجمة: الإمبراطورية ترد بالكتابة، مرجع سابق، ص 17.

8 - محمد مندور: في الميزان الجديد، مؤسسة هنداوي، لندن، 2020م، ص 60.

واعتراف مؤسسيه بأنه ليس هناك صياغة واضحة تمكّن الناقد من تقديم تعريف واضح لهذا المصطلح⁽⁹⁾، مع ذلك فإنه قد أصبح معنى مستقراً واضح الدلالة في المفهوم النقدي العربي، كذلك كل معنى أو مفهوم يرد على الثقافة العربية، وجرى العرف على الدعوة إلى محاولة تقليد هذه المفاهيم، ويكون مقدار الإجابة من عدمه في القدرة على استلهاهم الأسس الغربية في الحالة المثالية لها، أو حتى في أخذ موقف تقليدي بالعودة إلى التراثية ورفض هذه الحداثة ومحاولة التحديث، لكن الوضع هنا مختلف، فمشكلة المعنى المقدم مع ما بعد الكولونيالية أنه معنى ينقض هذا المعنى ذاته.

كيف ذلك؟ في كل النظريات الغربية الأخرى فإن جوهر هذه النظريات محاولة تقديم تفسير ورؤية للأدب والشعر، ويتداخل ذلك مع مظاهر التعبير البشري المختلفة، فينتقل إلى حقول فلسفة الجمال، أو علوم الاتصال والتواصل، أو التداخل مع المظاهر اللغوية، أو حتى التلاحم مع الوقائع الاجتماعية، بيد أنه في حالة ما بعد الكولونيالية فإن سهام النظرية نفسها موجهة إلى ذلك الغرب الذي ننقل عنه، كيف إذن ننقل عن الغرب انتقاده؟ أو كيف نفهم ذلك؟ هل العناصر والعوامل ذاتها التي دفعت مُنظري ما بعد الاستعمارية إلى انتقاد الغرب، هي نفسها ما جعلنا نفعل ذلك؟ هل الصالح العام يتحقق في نقده أم تقليده أم التعلم منه أم الاقتباس منه؟ ونحذر هنا من خطورة الانزلاق إلى الإجابات المثالية السريعة، ذلك أن العلاقة من أعقد ما تكون، يتضح ذلك عندما نرى أن المنظرين الغربيين أنفسهم يتساءلون حول جدوى هذه النظرية من عدمه.

تقول فردوس عظيم: "... بل إن نظرية ما بعد الكولونيالية نفسها مجال خلافي على نحو كبير. ثمة شك عميق بشأن هذه النظرية سواء داخل المجال الأكاديمي أو خارجه إلى حد أن دارسيها وباحثيها، وبعد مرور عشرين عاماً، كثيراً ما يواجهون مشاكل وصعوبات عند تقديم تعريف لها، أو عند الحديث عن رؤيتها المختلفة عن

⁹ - راجع: إبراهيم فتحي: الأوجه المتعددة للرومانسيات، ضمن كتاب: مارشال براون (تحرير):

موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي: المجلد الخامس - الرومانسية، ترجمة: إبراهيم فتحي ومليس النقاش، مراجعة وتقديم: إبراهيم فتحي، المشرف العام: جابر عصفور، آفاق للترجمة والنشر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2016، ص 7.

المجالات التي تحرص على أن تنفصل عنها، فضلاً عن مشكلة تقييم مدى فائدتها في فهم الحركات النضالية والتركيبات الاجتماعية في البلاد التي كانت مستعمرةً فيما مضى." (10)

ولسنا في حاجة إلى ذكر أن الأمر يصل في انتقاد النظرية أن البعض أحياناً يراها في صالح المستعمر - بكسر الميم، أكثر مما تفيد من كان مُستعمراً - بفتح الميم، وإذا ما وضعنا هذا بجانب ملاحظة خيرى دومة حول مؤسسي النظرية في سياق الثقافة الغربية، فنجد أنهم ينطبق عليهم مصطلح هومي بابا بالهجنة، فتقافتهم هجين بين الحضارة الغربية التي يعيشون في خضمها، وانتمائهم لثقافات بلدانهم التي كانت ذات يوم مستعمرة (11)، ومن ثم فإن جوهر الأمر الذي طرقة دومة دون أن ينتبه الكثيرون لخطورته، أننا نرى العلاقة بيننا وبين الثقافة التي كانت - وربما ما زالت - تهيمن علينا عبر منظور هجين ثقافي ومن ثم فإن إدراكنا لمعنى الهيمنة الثقافية لا يزال إدراكاً غير مباشر، وغير دقيق لواقع الأمر، أو على الأقل لا نراه صافياً من منظورنا نحن الخالص.

الأمر إذاً أشبه بالمنشور الثلاثي الشهير في تجربة العلوم؛ الذي يُحلل الضوء إلى أطيف وألوان، بمعنى أننا - في خضم النظرية ما بعد الكولونيالية - نرى علاقتنا الـ "نحن" بالـ "هُم" الآخر الأوروبي الغربي، عبر وسيط زجاجي لا يقدم لنا الضوء كما هو، وإنما يحلله وفق آليات مفهومية خاصة به، ووفق أطرٍ ثقافيةٍ أغلبها بالأساس مستمد من بيئة الثقافة التي تمارس الهيمنة، ومن ثم فإن ما نراه في الحقيقة، هو أطيف الضوء، أو بمعنى أدق ما يصل لنا من معانٍ في هذه القضية، هي المعاني المختارة من قبل هؤلاء، ويوضح لنا الشكل التالي هذه العلاقة التي يشوبها منظور مغاير يحول دون الرؤية

10 - فردوس عظيم: ما بعد الكولونيالية، ضمن كتاب: ك. نلووف، وآخرون (تحرير): موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي: المجلد التاسع - القرن العشرون المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية، ترجمة: إسماعيل عبد الغني وآخرون، مراجعة وإشراف: رضوى عاشور، المشرف العام: جابر عصفور، آفاق للترجمة والنشر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 340.

11 - انظر: هومي.ك. بابا: موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، 2006م، ص 316-317.

الواضحة بين الطرفين، خاصة مع اعتبار الغرب كثيراً من هؤلاء الكتاب مُمثلي صوت الشرق وحضوره في ثقافتهم، انظر الشكل التالي:



إذن آلية إنتاج المعنى هنا تعلن منذ بدايتها أن بها عطباً يحتاج إلى التصويب، وقد نجح الدكتور خيرى دومة أن يشير ويلفت النظر منذ البداية إلى جوهر هذا العطب، وإن كنا مازلنا لا نستطيع أن نضع أيدينا على آلية أو كيفية لتصويبه.

لماذا اختار خيرى دومة رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" لتكون نموذجاً للتطبيقي؟ والتي سنعتبرها هنا امتداداً لمحاولته تقديم طرح واضح، دقيق المعنى حول نظرية ما بعد الكولونيالية بتقديم نموذج تطبيقي حول كيفية الاستفادة من هذه النظرية؟ بداية نسجل هنا الاتجاه الأكاديمي الواضح لدى الناقد خيرى دومة، فما إن قدم أحد النصوص الأصلية المهمة جداً في مجال النظرية، إذ به يعود بعد خمس سنوات ليقدّم طرحاً نقدياً، وكان يملك أن يختار العديد من النصوص التي تزامنت مع هذا الطرح، منها على سبيل المثال رواية "أمريكانلي" لصنع الله إبراهيم التي كنا قد أشرنا إليها في دراسة من قبل، والطريف في الأمر أنها تتشابه كثيراً مع حالة الهجنة الثقافية التي يتحدث عنها هومي بابا في موقع الثقافة، وتنطلق أحداثها من قلب الأكاديمية الغربية، التي تنظر وتطلق لنا المصطلحات الخاصة بهذه النظرية، لكنه بدلاً من ذلك يعود إلى رواية كلاسيكية عُدت من أعمال النظرية الغربية، كان إدوارد سعيد قد أشار إليها سابقاً

بواسطتها فعلاً من أفعال المقاومة، وعقد مقارنة بينها، وبين "قلب الظلام" لجوزيف كونراد.

يقول إدوارد سعيد: "وفي رواية الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، يصبح نهر كونراد النيل، الذي تجدد مياهه نفوس أهله وحيويتهم، وبمعنى ما يعكس أسلوب كونراد السردي البريطاني القائم على المتكلم المفرد، ويعكس أبطاله الأوروبيين، أولاً عن طريق استخدام اللغة العربية، وثانياً في كون رواية صالح تدور حول رحلة من الشمال السوداني إلى أوروبا؛ وثالثاً، لأن الراوي يتحدث من قرية سودانية. هكذا تقلب رحلة إلى قلب الظلام إلى هجرة مقدسة من الريف السوداني – الذي ما يزال يزرع تحت أعباء موروثه الاستعماري – إلى قلب أوروبا، حيث يطلق مصطفى سعيد، وهو صورة مرآوية لكورتز <في قلب الظلام>، عنان عنف طقوسي ضد نفسه وضد النساء الأوروبيات وضد الفهم لدى الراوي. وتختتم الهجرة بعودة سعيد إلى قريته الأصلانية وانتحاره فيها."⁽¹²⁾

إذاً رؤية إدوارد سعيد عندما كان يتحدث عن موسم الهجرة إلى الشمال مختلفة تماماً عن رؤية خيرى دومة، إدوارد سعيد كان يجري نوعاً من المقارنة بين "قلب الظلام" لجوزيف كونراد، و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، وهي بهذه الكيفية شبيهة بدراسات الأدب المقارن التقليدية، الفارق هنا عن الدراسات المقارنة التقليدية أن الموضوع المشترك بين الاثنين هو الرؤية للمستعمر، والرؤية للمكان والأشخاص في أوقات معينة، وتحت تأثير ظروف سياسية ومجتمعية معينة، بمعنى أن الموضوع واحد، لكن الرؤية مختلفة، والزوايا مختلفة، وإن كان في كليهما – بشكل أو بآخر – تظهر مأساة الشعوب المستعمرة، وتظهر الكيفية العنيفة التي تحدث نتيجة آثار الاستعمار.

أما عند خيرى دومة فإن الأمر مختلف، بدايةً لا يمكننا المرور إلى نقده للرواية بدون النظر إلى التقديم الذي صاحب هذا العمل، حيث من الصفحة السابعة إلى الصفحة الثالثة والأربعين- في نحو سبع وثلاثين صفحة من أصل أربع وستين تمثل الفضاء

¹² - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط4، بيروت، 2014م،

النصي للكتاب- كانت مخصصة لتقديم النظرية، وكثير منها له علاقة بالمقدمة التي صاحبت ترجمة كتاب "الإمبراطورية ترد بالكتابة"، بل إن العرض للنظرية يأتي على النحو التالي:

"موسم الهجرة إلى الشمال" كما هو معروف، رواية شهيرة للكاتب السوداني الطيب صالح، نشرها أواسط الستينيات في بيروت ثم في القاهرة، وسرعان ما جازت شهرتها الآفاق لأسباب متنوعة، وازدادت هذه الشهرة بعد ترجمتها إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات الحية. أما "نظرية ما بعد الاستعمار"، فواحدة من نظريات الـ"ما بعد": ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة، وما بعد الاستعمار، وهي النظريات التي راحت - على مدار العقود الثلاثة الماضية - تتكاثر وتهيمن على الساحة الثقافية، وتنتقل من حقل من حقول الثقافة إلى آخر: من السياسة والاقتصاد، إلى الفلسفة، إلى الأنثروبولوجيا، إلى التاريخ... " (13)

هنا يندمج التنظير مع التطبيق، التقديم بدأ من التطبيق، وكأن الرسالة الضمنية هنا أن النوع الأدبي الدال على ما بعد الاستعمار هو رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، تداخل التنظير والتطبيق يعكس ميلاً ثقافياً عربياً إلى تجاوز أزمة الغموض التي صاحبت تقديم نظريات النقد الأدبي المعاصر منذ حقبة الثمانينيات في القرن الماضي، وأعتقد أنه أصبح من المستحيل في وقتنا الراهن تقديم نظرية غربية بالطريقة الغامضة التي حدثت مع ثمانينيات القرن الماضي، لكن على ما يبدو أيضاً فإن النظريات الغربية لم يعد توليدها وتكوينها بالزخم ذاته الذي صاحب القرن الماضي منذ أربعينياته إلى مطلع الألفية الثالثة، بيد أن ثمة نقطة جوهرية يجب التأمل فيها.

لماذا في المجتمعات الغربية ينتقل أثر النظريات النقدية الأدبية أو الفكرية إلى مجالات أخرى مثل السياسة والاقتصاد والفلسفة والأنثروبولوجيا، في حين تبقى النظريات الأدبية في العالم العربي مقتصرة الأثر على الدراسات الأكاديمية، وطريقة نقد النصوص الأدبية؟ جانب من ذلك يكشف العزلة المجتمعية التي تعيشها العلوم الإنسانية

¹³ - د.خيري دومة: عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار، مرجع سابق،

في عالما العربي، فمن ناحية هناك عزلة بين بعضها بعضاً، فهناك عزلة بين الاجتماع والتاريخ والجغرافيا وعلوم السياسة والاقتصاد، والدراسات الأدبية والنقدية، ومن ناحية أخرى هناك عزلة بين كل هؤلاء، والواقع العملي التطبيقي في أرض المجتمع العربي، ومن ثم فلا نرى تغيراً ثقافياً أو حدثياً أو ما بعد حدثياً حقيقياً في العالم العربي، إذ يبقى الأثر في داخل المجال الخاص بالدراسات الأدبية فقط.

في الدراسات الأدبية المعاصرة يكتسب العنوان أهمية كبيرة في التحليل، وعنونة خيرى دومة هنا تثير الغموض والتساؤل حول المعنى المقصود، إذا افترضنا أن كتابه يتكون من شقين: رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" من ناحية، و"نظرية ما بعد الاستعمار" من ناحية أخرى، فما الهدف من جعل مفتاح العنوان لكل ذلك هو: "عدوى الرحيل"؟ هل هي إشارة إلى كُتاب ومُنظري ما بعد الاستعمار الذين أغلبهم – إن لم يكن جميعهم – قد رحلوا بالفعل عن عالمهم العربي أو الشرقي الأدنى أو غيره من العوالم التي كانت مستعمرة ذات يوم، لكي يستقروا في حضن الثقافة الغربية، وفي قلب إمبراطوريتها الإمبريالية الجديدة؟ إذا كان الأمر كذلك فالحقيقة أن ثمة معنى ضمني يريد المؤلف هنا أن يقوله ربما يكون خطير الشأن.

ذلك أن الطيب صالح، مثل غالبية رواد نظرية ما بعد الاستعمار، عاش في حضن الثقافة الغربية، فمنذ مولده عام 1929 في قرية "كرمكول" بالسودان، وإكماله دراسته في الخرطوم، ثم السفر لإنجلترا، وانخراطه في دراسة الشؤون الدولية والتخرج فيها، قبل أن يقوم بالتدريس في مدرسة أهلية في الخرطوم، والعمل إعلامياً في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، ومديراً إقليمياً بمنظمة اليونسكو بباريس، وممثلاً لليونسكو في الخليج العربي⁽¹⁴⁾، كل ذلك جعله يعيش التجربة التي مر بها رواد ومنظرو الدراسات ما بعد الاستعمارية، ليعود ويقدم فيها إسهاماً جديداً، لكن هذه المرة إسهام إبداعي وليس تنظيرياً، بيد أن هناك الكثيرين ممن قدموا روايات اشتباكية حول العلاقة بين الشرق والغرب، لكنها لم تلقَ كل هذا الزخم، فلماذا تعد رواية الطيب صالح مختلفة؟

¹⁴ - د. أرشد لاسكار: حياة الطيب صالح وثقافته، مجلة سبرين للدراسات العربية – الإنجليزية، متاح على الرابط (شوهه يوم 29/8/2025): <https://ae.sprinpub.com/sjaes/article/view/4>

يعلق محمد شاهين على ذلك فيقول: "ومن ميزات الرواية التي ترقى بها على مثيلاتها من الروايات العربية المشابهة أنها قامت بمسرحة المجابهة بطريقة مقنعة لا لبس فيها، يتساوى فيها أطراف الصراع في ميدان المواجهة، فهما أنداد على المسرح. ماذا فعل على سبيل المثال أو المقارنة كل من توفيق الحكيم في «عصفور من الشرق»، ويحيى حقي في «قنديل أم هاشم» وسهيل إدريس في «الحي اللاتيني»؟ جميعهم حققوا انتصارات الشرق في المواجهة بطريقة ميتافيزيقية؛ أي أن الانتصار يتحقق قبل أن يبدأ فعلاً، وأن الهوة بين الغرب والشرق تتمثل في شعور الشرق بتفوق الغرب على شرقه، إذ يجد نفسه محاصراً بشعور قوي بالنقص، يسد فراغه برومانسية تنتهي إلى ميتافيزيقيا تخرج بالشرق من التاريخ وتعيده إلى المربع الأول، إلى بداية المواجهة، ويعود أبطال تلك الروايات المذكورة إلى شرقهم راضين من الغنيمة بالإياب، مرددين عدنا والعود أحمد. على عكس مصطفى سعيد الذي يعود مثخناً بجراح التجربة ومثقالاً بأعباء المواجهة، وكأن أوديسيوس يعود إلى أثاكا ليجد في جعبته ما يستحق الفعل الروائي." (15)

الطبيعة والطريقة والكيفية والعنصر النسوي، والانتصار الزائف الغامض الذي يغلف رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" هو ما يميزها تمايزها عن الروايات السابقة المذكورة هنا، بيد أن ما يعنينا هنا أكثر هو طريقة معالجة الدكتور خيرى دومة في نقده لهذه الرواية، فنجد أنه قد قرن في العنونة "موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار"، هل يعني الترتيب أي مفاضلة بين الاثنين؟ المتوقع أن تُذكر النظرية أولاً، ثم العمل الأدبي الذي سيتم التطبيق عليه، لكن الأمر هنا مختلف، وأعد ذلك إشارة من الدكتور خيرى دومة، إلى أن النوع الأدبي والإبداع التألّفي هو الذي عليه أن يختار النظرية التي يتم نقده بها، ولما كانت رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" هي التي تستوجب استحضار نظرية ما بعد الاستعمار، فكانت نقدها بهذه الكيفية. العنونة هنا بتقنياتها دالة وتشير إلى العديد من النقاط المهمة.

¹⁵ - محمد شاهين: الطيب صالح.. وداعاً.. الطيب صالح والموسم الخالد، مجلة العربي، متاح على

الرابط (شاهد يوم 29/8/2025):

<https://alarabi.nccal.gov.kw/Home/Article/10308>

في العنوان الجانبي الذي يبدأ من خلال خيرى دومة تحليل الرواية يقول: "موسم الهجرة يتكرر، و"العالم في طفولة لا تنتهي"، وذلك في إشارة واضحة إلى استمرار مأساة الهيمنة، ومأساة استمرار القمع في العالم، ذلك أن الطفولة المقصودة هنا – في اعتقادي – هي ليست تلك الطفولة البريئة، بقدر ما هي الطفولة التي تشير إلى الأخطاء الجسيمة، وعدم النضج، وكيف بعد كل هذا الزمن، لا تزال العلاقة بين الدول وبعضها بعضاً، تشبه العلاقة بين مجموعة من المراهقين الذين يعتمدون في تحديد علاقاتهم ببعضهم بعضاً، على عضلاتهم وقدرتهم في إلحاق الأذى بالآخرين، الرسائل الضمنية في أعمال خيرى دومة كثيرة جداً، وتحليلها يمكن أن يمتد إلى عدة مسارات، وكلها تخضع وتتأثر بروية المتلقي.

بدأ خيرى دومه نقده في تحديد السياق الاجتماعي والثقافي الذي أطلقت فيه الرواية، يقول:

"حين كتب الطيب صالح روايته أواسط الستينيات، كانت مجتمعات العالم العربي وأفريقيا والعالم الثالث قد خرجت لتوها من ربة الاستعمار العسكري الطويل، مفعمة بالأمل في التخلص من آثاره المزمنة، أو من جرثومته التي تركها في نسيج هذه المجتمعات. لم تكن موجات الهجرة إلى الشمال قد تشكلت ملامحها أو تجددت مواسمها على النحو الذي نراه في حركة ما بعد الاستعمار. لم تكن حتى آليات رصد العلاقة بين السلطة والمعرفة، أو بين الإمبريالية والثقافة، قد تشكلت على النحو الذي يمنح مثقفي ما بعد الاستعمار أدوات للتحليل." (16)

بعدما يحلل خيرى دومة السياق الثقافي الاجتماعي الذي ولدت فيه النظرية، ينتقل إلى محاولة النسق الكلي الذي بنيت وفقاً له الرواية، وفي هذا الصدد يشير إلى ملحوظة في غاية الأهمية، ألا وهي التشابه الكبير بين بطل الرواية وراويها في الوقت نفسه، مع مؤلفها وكاتبها: الطيب صالح من ناحية، ثم مع غالبية مثقفي ما بعد الاستعمار الذين

¹⁶ - د. خيرى دومة: عدوى الرحيل: موسم الهجرة إلى الشمال ونظرية ما بعد الاستعمار، مرجع سابق،

يعيشون في حضن الثقافة الغربية من ناحية أخرى⁽¹⁷⁾، ومن ثم فكأن الرواية في حقيقتها تتحدث بلسان حال هؤلاء الذين يعيشون في الحقيقة انشطاراً ثقافياً أكثر مما هو تعبير عن واقع الصدام والعلاقة بين الشرق والغرب.

بعد هذه الملاحظات الثقافية ينطلق خيرى دومة ليحلل شخصيات الرواية، فيتوقف أمام ثلاثية الشخصية: مصطفى سعيد، والراوي الذي لا يحمل اسماً، ثم الكاتب، عبر ثلاث طبقات من الوعي متعلقة بالطيب صالح، فالشخصيات الثلاث ليست سوى تنويعات على شخصية واحدة مفترضة - وفق رؤية خيرى دومة - ذلك المثقف الوطني المستعمر بفتح الميم.

يحلل هنا خيرى دومة المسافة بين تلك الشخصيات من داخل النص، ثم يتوقف أمام توجس الراوي من مصطفى سعيد، من ثم كان لاتخاذ شكل المونولوج الدرامي الطويل أهمية في ثنايا الرواية، ويعتبرها وسيلة لمواجهة الهيمنة الغربية، وكذلك يرصد الحوارات الجانبية العابرة داخل ثنايا النص، لكن العنف سيد الموقف رغم طيف الرومانسية الذي يمر بين لحظة وأخرى، يقول خيرى دومة:

"سيختار الراوي أ، يفتحم باب الحديد المغلق، ويدلف إلى غرفة الأسرار، ليحسم أمره في النهاية ويقرر أن يحرق هذه الغرفة وما تمثله، وأن يترك غريمه للنار تأكله. غير أن الغموض والتجريد سيصلان إلى الذروة مع الفصل الأخير القصير، الذي يذكرنا بنهايات النوفيل التي تتضمن نقطة تحول مدهشة، لكنها لا تتضمن ختاماً ولا تحديداً للمصائر، بل نهاية مفتوحة على كل التأويلات، وهنا لن نصبح إزاء إجابات بل إزاء مزيد من الأسئلة."⁽¹⁸⁾

ومن جوهر أحداث الرواية، يحلل خيرى دومة أثر الاستعمار والرسائل الضمنية التي تحملها الرواية، ثمة سؤال هنا: ترى لو لم تقم نظرية ما بعد الاستعمار بتقديم هذه الإيضاحات، هل من الممكن رؤية تلك الإشارات الرمزية بهذه الدرجة من الوضوح؟ إن

¹⁷ - السابق، ص 47.

¹⁸ - السابق، ص 61-62.

الأفعال المترابكة والمتداخلة في ثنايا النص، يفسرها خيرى دومة بأن ذلك تعبير وتجسيد عما تركه الاستعمار على الذات المستعمرة بفتح الرءاء، حيث يتمثل ذلك في انشطار الذات⁽¹⁹⁾، ثم يمضي خيرى دومة لدراسة أثر تعليقات الطيب صالح ذاته على توجيهه النقد، فكلما أدلى بتصريح حول روايته، توجه النقد في ذلك إلى أوجه مختلفة، فإذا ما تحدث عن أهمية شخصية الراوي في روايته، كان ذلك دافعاً إلى التركيز على شخصية الراوي، وإذا ما تحدث عن العلاقة الوهمية بين العالم العربي الإسلامي والحضارة الغربية الأوروبية، أثر ذلك في توجه النقد، إن مرحلة معينة من الشهرة والحضور لدى المؤلف تكون كفيلاً لأن تحقق تأثيرها على فعل النقد على ما يبدو.

النتائج والتوصيات:

يؤدي تحليل تقديم نظرية ما بعد الاستعمار وتطبيقها عند خيرى دومة إلى التأمل في عدة نتائج وتوصيات حول تلقي النظريات الغربية في السياق العربي من ناحية، وحول توليد المعاني المستحدثة في الثقافة العربية وفق حركة ترجمة دقيقة من ناحية ثانية وذلك على النحو التالي:

أولاً: تكشف لنا الدراسة هنا عن ضرورة عمل دراسات مقارنة أو موازنة بين الترجمات المتعددة للكتاب الأجنبي الواحد الذي تمت ترجمته للغة العربية.

ثانياً: البحث في علاقات الثقافة العربية والثقافة الغربية في الترجمات المتبادلة، وعمل دراسات مقارنة حول ما يتم ترجمته من العربية إلى اللغات الأجنبية من الأدب العربي، وما يتم ترجمته من الغرب إلى العربية في نفس التوقيت، ودراسة تأثير ذلك على الثقافة العربية.

ثالثاً: عمل دراسات مقارنة للمؤلف الواحد بين نقاده، ودراسة الفروق والتميزات في النقد المتعدد للعمل الأدبي الواحد.

¹⁹ - السابق، ص 63.

رابعاً: تشكيل لجنة أو هيئة تعمل على ترجمة النماذج المختارة للأدب العربي إلى الثقافات الغربية والشرقية ومختلف ثقافات العالم، ذلك أن العالم الغربي ينظر للنصوص الأدبية المترجمة عن المجتمعات الأخرى، أنها تقوم بدور شبيه بما كان يقوم به المستعمرون في أوقات سابقة، ولا يبدو لدى هذه الثقافات القدرة على التفرقة بين الحقيقي والمتخيل في هذه الكتابات، فيعاملون مجتمعنا وفقاً لها.

خامساً: محاولة تحليل ظاهرة القطيعة بين العلوم الإنسانية في العالم العربي، وسبب اقتصار أفكار نظرية الأدب المعاصرة التي تحولت إلى سياسات وفلسفات فاعلة في مجتمعاتها الغربية، سبب اقتصارها في العالم العربي على استمرار درسها في دائرة النقد الأدبي فقط.

سادساً: في خضم هذه المتغيرات العالمية، ووسط هذا الكم من صراع الأفكار، ترى ما مصير فلسفة الجمال الأدبية والإبداعية؟ ذلك سؤال يجدر أن يكون محل اهتمام كبير في وقتنا الراهن؛ فلسفة الجمال الأدبي والإبداعي إلى أين؟ هل طغت النظرية الأدبية المعاصرة على نظريات الجمالي الأدبي؟

سابعاً: ربما نحن بحاجة إلى إعادة برنامج فاعل للبعثات في المجتمعات الغربية، مثلما ترك المثقفون الأوائل الذين تعلموا في هذه البلدان من أثر، نحن بحاجة الآن إلى حركة مشابهة تعرفنا إلى واقع الثقافة الغربية الآن، وواقع المجتمعات الغربية، إذ أن اختفاء برنامج البعثات له أثره في تحقيق عزلة ثقافية ربما لا ندرك بعد مقدار خطرها على جمود الثقافة العربية.